مقامات ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾
في القرآن الكريم، وأسرارها البلاغية

د. إبراهيم بن عبد الله بن غانم السماعيل

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

كلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾(١)، وبعد:

فإن الاشتغال بالقرآن الكريم تلاوة، وحفظًا، وتدبّرًا من أعظم المقاصد، وأجلّ المطالب ؛ ذلك أنَّ القرآن الكريم قد اشتمل على مصالح العباد في الدارين، وآياته بالغة الإعجاز في المباني، مع وضوح المعاني، وعظيم حاجة العباد إليها، و" مَن تَدَبَّرَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ اللَّطِيفَةَ تَبَيَّنَ لَهُ بَعْضُ حِكَمِ الْقُرْآنِ وَأَسْرَارِهِ، فَتَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ، فَإِنَّهُ كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ،لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَايَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُّ، وَمن تَرَكَه من جبّار قصَمَه اللهَّ، وَهو حبلُ

((١) هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة ، وهي مشروعة بين يدي كل حاجة ، وهي مأثورة عن رسول الله – ﷺ – أخرجها مسلم،٣/ ١١، وابن ماجه في كتاب النكاح، ١/ ٦٠٩، وأبوداود في كتاب الصلاة، ١/ ٦٥٩ ، والنسائي ،٣/ ٣٢٢

اللهَّ المتينُ، وَهو الذِّكرُ الحكيمُ، وَهو الصِّراطُ المستقيمُ، وهو قرآنٌ عَجَبٌ يهدي إلى الرُّشد، أنزله اللهَّ هُدًى ورحمةً وشفاءً وبيانًا وبصائر وتذكرة "(١).

أهمية الموضوع:

وتتجلى أهمية الموضوع في صلته الوثيقة بالقرآن الكريم ؛ حيث إن الدراسة تتجه إلى آيتين عظيمتين من كتاب الله تعالى، وحسبك بذلك أهمية، إذ قد وفقني الله تعالى في هذا البحث إلى الوقوف على قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فدرستها في الموضعين اللذين وردا فيهما، وبيّنت مقاماتهما البلاغية، مع الوقوف على ما يتعلق بالآيتين من خلال الوقوف على موضوع السورتين اللتين اشتملتا على هاتين الآيتين، مع ذكري ما يتعلق بكل آية مما سبقها، أو لحقها مما هو داخل في سياقها ؛ إتمامًا للفائدة . ولأن الكلام إنما يستقيم بذكر ذلك.

ولأن المفيد في الدراسات البلاغية القرآنية و(المأمول) منها أن تُعنى بالإشارات، والتنبيهات إلى مواضع الحسن، و(فتح) باب استخراج الجواهر والفوائد من مكنونها، فقد اقتصرت على هذين الموضعين من القرآن الكريم، فالتخصص – وإن قلّت المادة – قد يثري الموضوع، ويبيّن أن من الممكن – بعد توفيق الله تعالى – أن يمعن الباحثون النظر في هذا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٦ / ٢١٢

الكتاب العظيم، من خلال دراسة أسلوب من أساليبه، أو تركيب، أو آية، أو ربما الاقتصار على لفظ واحد من القرآن الكريم.

وأول هذين الموضعين هو ختام الآية التاسعة عشرة من سورة (الرعد)، والموضع الآخر هو ختام الآية التاسعة من سورة (الزمر) ونصُّ الآيتين هو:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الرعد: ١٩).

٢- قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ (الزمر: ٩).

أسباب اختيار الموضوع:

وسبب اختياري هذا الموضوع هو ما له من أهمية كبيرة ذكرتها آنفًا من حيث كونها دراسة قرآنية، إضافة إلى أهمية الإشارات البلاغية حول هاتين الآيتين الكريمتين، مع ما في التطرق لمثل هذه الموضوعات من إثارة الهمّة إلى اكتشاف عظمة هذا الكتاب العزيز، لأن دراسة أي تركيب فيه – وإن كان موجزًا – فإنه يكشف شيئًا من إعجازه.

خطة البحث :

وقد قسّمت بحثي إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، فخاتمة، يقفوها ثبت المصادر والمراجع.

فالمقدمة ذكرت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطته، والمنهج في كتابته.

وأفردت المبحث الأول للحديث عن الآية التي ورد فيها الموضع الأول، مبيّنًا سبب النزول، وذاكرًا الأوجه البلاغية في ذلك الموضع.

وجعلت المبحث الثاني للحديث عن الآية التي ورد فيها الموضوع الثاني، مبيّنًا سبب النزول، وذاكرًا الأوجه البلاغية في ذلك الموضع.

في حين خصصت المبحث الثالث لذكر المواضع البلاغية الخاصة في جملة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

ثم ختمت بحثي بالخاتمة، وقفَّيتها بثبت المصادر والمراجع.

منهج البحث :

سلكت في بحثي هذا المنهج التحليلي، حيث وقفت عند الموضع الأول، ودرست ما فيه من وقفات بلاغية، وبيّنت وجوه الإعجاز فيه، مع النقل عن العلماء فيما يتعلق بذلك الموضع، وكذلك فعلت مع الموضع الآخر.

والله تعالى المسؤول أن يجعل هذا البحث نافعًا لي، ولعموم إخواني المسلمين، وأن يكون من العلم الذي أنتفع به في حياتي، وبعد مماتي، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

المبحث الأول

في قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]

المطلب الأول: سبب نزول الآية :

جاء في سبب نزولها عدة أقوال:

١- قيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - عم النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبي جهل ابن هشام. وممن قال به: ابن عباس رضي الله عنهما (١).

٢- وقيل: نزلت في عمار - رضي الله عنه - وأبي جهل، فالأول عمار، والثاني أبو جهل، وهو الأعمى، وذكر ذلك ابن عطية ثم قال: "وهي -بعد هذا- مثال في جميع العالم"(٢) و"حمل الآية على العموم أولى ، وإن كان السبب مخصوصًا" (٣).

---

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٣ / ١٨٩، ومعالم التنزيل، ٤ / ١٦، والجامع لأحكام القرآن: ٩ / ٣٠٧ ، ولباب التأويل: ٤ / ١٦.

(٢) المحرر الوجيز، ٣/ ٣١٣.

(٣) لباب التأويل: ٤ / ١٦، وينظر :تفسير القرآن للسمعاني: ٣ / ٨٩.

المطلب الثاني: مناسبة الآية بسورة (الرعد)

أولاً : موضوع سورة (الرعد)

" أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول- ﷺ -فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءا ونهاية "⁽¹⁾.

ولذلك نرى كيف تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة، وهي قضية الوحي بهذا الكتاب، والحق الذي اشتمل عليه. وتلك هي قاعدة بقية القضايا من توحيد لله، ومن إيمان بالبعث، ومن عمل صالح في الحياة . فكلها متفرعةعن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله - ﷻ -وأن هذا القرآن وحي من عنده سبحانه إلى رسوله- ﷺ -.

ثانيًا : علاقة الموضع الأول ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ بما قبله في سورة (الرعد)

أشار الطاهر ابن عاشور إلى وجود علاقة للآية المذكورة واتصال لها في المعنى بقوله في أول السورة﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(الرعد: ١)⁽²⁾. وذلك من حيث التأكيد على أهمية مسألة الوحي،

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢ / ١٣٤، وينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٠ / ٢٦٩.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير: ١٣ / ١٢٣

وأنه منزَّل على رسول الله - ﷺ - وأن الناس في تلقّي الوحي فريقان مختلفان، فمؤمن به وكافر، وهذان الفريقان لا يستويان! والفضل فيهما لأولي الألباب، الذين اهتدوا إلى الحق الذي أُنزل إلى رسول الله - ﷺ - من ربّه تعالى.

وعليه فيمكن القول إن المناسبة بين قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ وبين عموم آيات (سورة الرعد) أن القضية الأولى هي قضية الوحي، وقد أثيرت في صدر السورة، وهي تثار هنا مرة أخرى على نسق جديد.

وقد زاد ابن عاشور الأمر وضوحًا؛ حين أشار إلى صلة هذه الآية بما سبقها من آيات، فقد ذكر أنَّها تفريعٌ على جملة ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴿١٨﴾﴾ (الرعد: ١٨)، وبيَّن ذلك قائلاً: " الكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام؛ تنبيهًا على غفلة الضالين عن عدم الاستواء، كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ (السجدة: ١٨)"(١).

ثالثًا: علاقة الموضع الأول ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ بما بعده في سورة (الرعد)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣ / ١٢٣

أشار البقاعي – رحمه الله تعالى – إلى الربط البديع بين قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ وبين ما جاء بعده من آيات، فقال وأجاد:

"ولما منح سبحانه من فيهم أهلية التذكر بالعقول الدالة على توحيده والانقياد لأوامره، كان كأنه عهد في ذلك، فقال يصف المتذكرين بما يدل قطعاً على أنه لا لب لسواهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الرعد: ٢٠)... "(١)؛ وذلك لارتباط الصفات المذكورة بعد هذه الآية بفحوى أولي الألباب وأهليتهم للإيمان بما جاء به رسول الله – ﷺ – من الوحي والحق.

---

(١) نظم الدرر: ١٠ / ٣٢٨ – ٣٣١.

المطلب الثالث : الفنون البلاغية في الآية.

اشتمل قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ على العديد من الفنون البلاغية، ومنها:

أولاً :الاستفهام.

وهو الوارد في قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾، والمراد بهذا (الاستفهام) هنا(النفي)"فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر" (١).

ولنا أن نتساءل عن الغرض البلاغي لمجيء الاستفهام لغرض النفي؟

وعلى ذلك يجيبنا الطاهر ابن عاشور بقوله : " الغرض أن النفي جاء في صورة الاستفهام تنبيها على غفلة الضالين عن عدم الاستواء"(٢). والإتيان بالنفي على صيغة الاستفهام أبلغ من النفي المجرد عن تلك الصيغة ؛ لاشتماله على التأكيد المصاحب المفهوم من الاستفهام في هذا التركيب، فسبحان من أنزل القرآن على هذا الوجه من البلاغة.

ويُفهم من هذا النفي الإنكار بمعنى أنهما لا يستويان، وأن استواء المؤمن والكافر محلٌّ للإنكار ؛ أي كيف يستوي من يعلم أن المنزَّل من الله حقٌّ، ومن هو معرض غاية الإعراض عن الإقرار بهذا الحق حتى استحق

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣ / ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، والموضع نفسه.

أن يكون بِبُعده عن هذا النور بمنزلة الأعمى الذي لا يرى ما حوله من النور؟!(١).

ثانيًا: التفريع :

ومن الأوجه البلاغية في هذه الآية الكريمة (التفريع)، وهو:" أن يثبت لمتعلق أمرحكم بعد إثباته لمتعلق له آخر" (٢).

وذكر أبو البقاء في (الكليات)أنّ : "التفريع قد يكون تفريعا لسبب على المسبب، وتفريع اللازم على الملزوم أيضًا"(٣).

ومن مفهوم(التفريع) السابق نرى إشارة الطاهر ابن عاشور إلى أن في قوله تعالى :﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩ ﴾ تفريعًا على جملة ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾(الرعد: ١٨)، حيث إنَّ " الكلام لنفي استواء المؤمن والكافر فيصوره الاستفهام تنبيها على غفلة الضالين عن عدم الاستواء، كقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ (السجدة: ١٨)(٤)، وفي الترابط العجيب بين الآيات وهو ما سمّاه العلماء (التفريع) أبلغ الأثر على تأكيد هذا المعنى العظيم، وهو عدم استواء من يقرُّ بنبوة

---

(١) ينظر : الكشاف،٢ / ٤٩٤ ، و أنوار التنزيل: ٣ / ٣٢٦ ، و روح المعاني: ١٣ / ١٣٩ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ص ٣٤٦ ، وينظر : التوقيف على مهمات التعاريف: ص١٩٢ .

(٣) الكليات: ص ٦٧٦.

(٤) التحرير والتنوير: ١٣ / ١٢٣ .

محمد – ﷺ – وبأن ما أُنزل إليه من ربه هو الحقّ، وبين من أعرض عن ذلك، وضرب عنه صفحًا، فلم يرفع به رأسًا، ولم يهتدِ بهداه، ولم يؤمن بآيات ربّه، فإنّ ثمة بونًا شاسعًا بين من استجاب لربّه وبين أولئك المعرضين.

ثالثًا : الاستعارة :

ومما ذكره العلماء من مباحث بلاغية حول هذه الآية (الاستعارة) حيث أشاروا إلى أنه قد "استعير لمن لا يعلم أن القرآن حقٌّ اسمُ الأعمى ؛ لأنه انتفى علمه بشيءٍ ظاهرٍ بيِّنٍ فأشبه الأعمى. فالكاف للتشابه مستعمل في التماثل. والاستواء المراد به التماثل في الفضل بقرينة ذكر العمى"⁽¹⁾، وغير خافٍ ما أضفت هذه الاستعارة من جمال وبهاء على معنى هذه الآية الكريمة، فإنَّ مجرد استشعار العمى والتخبّط، وعدم الاهتداء للطريق يوحي بمدى التفاوت بين هذا الأعمى الضال وبين العالم المهتدي البصير بنور الله، الموقن بوعده ووعيده.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣ / ١٢٣.

رابعًا : التعليل :

والتعليل من أسرار التأثير في هذه الآية حيث إن " جملة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء بأن سبب عدم علمهم بالحق أنهم ليسوا أهلا للتذكر؛ لأنّ التذكر من شعار أولي الألباب،"(١)، وهم "أولو العقول السليمة الصحيحة"(٢).

وما أجمل ما ذكره (البقاعي) حول (التعليل) في هذه الآية، حيث قال: " ثم علل هذا الإنكار بقوله : { إنما } أي: لأنه إنما يعلم ذلك بالتذكر، وإنما {يتذكر} أي: يطلب الذكر طلباً عظيماً فيعمل { أولو } أي: أصحاب {الألباب} أي: العقول الصافية الخالصة القابلة للتذكر بالتفكر في أنّ ما أنزل من عند الله ثابت الأركان راسي القواعد، لا قدر لأحد على إزالة معنى من معانيه، ولا هدم شيء من مبانيه، وأنّ ما عداه مهلهل النسج، رثّ القوى، مخلخل الأركان، دارس الرسم، من طمس الأعلام، مجهول المسالك، مظلم الأرجاء، جمّ المهالك، وأما القلب الذي لا يرجع عن غيه لمثل هذا البيان فكأنه غير قابل للذكرى، فاستحق أن يُعدّ عدماً، وأن يخص التذكر بالقلب . ومن المعلوم أنه لا يستوي من له لبٌّ ومن لا لبَّ له"(٣).

---

(١) المرجع السابق ، والموضع نفسه.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٥٠.

(٣) نظم الدرر، ١٠ / ٣٢٧–٣٢٨.

خامسًا : حسنُ ورودِ الاستفهام مع الفاء :

وقعت الفاء في هذا الاستفهام الموقع الحسن، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن﴾، وهو ما تفطَّن إليه (الزمخشري) حين قال : "دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ لإنكار أن تقع شبهة بعدما ضرب من المثل في أنّ حال من علم﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب : كبعد مابين الزبد والماء، والخَبَث والإبريز" ⁽¹⁾.

فيفهم من ذلك أن " إيراد الفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الأمثال وما بيّن من المصير والمآل، كأنه قيل : أبعد ما بيّن حال كل من الفريقين وما لهما يُتوهم المماثلة بينهما؟!"⁽²⁾.

فيا لله كم لورود (الفاء) هنا من حُسْن في نفي الموازنة التي هي مقصد للآية، ومرادة من هذا الإنكار! وأن التعبير مع عدم وجود (الفاء) لا يفي بالمعنى المراد مع ورودها؛ لأن القضية قضية مقارنة، ونفي استواء بين فريقين متباينين كلّ التباين .

---

(١) الكشاف: ٢ / ٤٩٤.

(٢) روح المعاني، ١٣ / ١٣٩.

سادسًا : ذكر لفظ (الربّ) وإضافته :

مما يحسن الوقوف عنده في سياق هذه الآية ما أوحى به لفظ (الربّ) من ربوبية الله تعالى لنبيّه ومصطفاه، وأنه الربّ المعين الحافظ من كل مكروه، وفي إضافة (الربّ) في قوله:﴿رَبِّكَ﴾ إلى النبيّ الكريم – ﷺ – أعظم التسلية، وأكبر الفخر، حتى وإنْ عمِيَ عن الإيمان به ﴿مَنْ هُوَ أَعْمَى﴾!!

إذًا فليكذِّب بك يا محمد مَنْ يكذِّب، وليعرض عنك وعما جاءك من الحقِّ مَنْ يُعرِض ! فماذا يضيرك وأنت ربُّك الله ؟!

ومن خلال تتبع أدعية الأنبياء – عليهم السلام – يتبيَّن أنَّ عامة دعائهم يَرِدُ بلفظ (ربّ) ؛ وفيه ما فيه من معنى الربوبية، ومن أُنْسِ كلِّ داعٍ بربّه، وقد وجدت ذلك في نحو ثلاثة وأربعين موضِعًا في القرآن الكريم⁽¹⁾؛ من نحو قوله تعالى : ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾(البقرة: ١٢٦) ، وقوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾(آل عمران: ٣٨) ، وقوله تعالى :﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥﴾(المائدة: ٢٥).

---

(١) ينظر – مثلاً : سورة الأعراف: ١٤٣ ، وسورة هود: ٤٥ ، و سورة يوسف: ٣٣ ، و سورة إبراهيم: ٣٥ ، وسورة مريم: ٤ .

بل إنّ مما يدلُّ على أهمية الدعاء بلفظ (ربّ) أنَّ الأمر جاء به صريحًا في ستة مواضع من القرآن الكريم (١)، من نحو قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ ﴾ (الإسراء: ٨٠)، وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤ ﴾ (طه: ١١٤)، وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ ﴾ (المؤمنون: ٢٩).

سابعًا : التعبير بالجملة الاسمية والفعلية :

جاء التعبير بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد والتغير في سياق المدح في قوله تعالى :﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ ﴾والسرَّ في ذلك – والله تعالى أعلم – إفادة تجدّد العلم وزيادته يومًا بعد يوم، ذلك أن تصديق الصحابة الكرام – ﵃ – بصدق نبيهم – ﷺ –يزداد بزيادة إيمانهم.

وأما الكافر المعرِض فقد خُتِم على قلبه، وجُعل على بصره غِشاوة فلازمه العمى حتى لا ينفكُّ عنه، ولذلك ناسب – والله أعلم – التعبير عنه بالجملة الاسمية المفيدة الدوام والاستمرار، ولذلك جاء التعبير بلفظ ﴿ هُوَ أَعۡمَىٰٓ ﴾ والعياذ بالله ممن هذه حاله.

---

(١) هذه المواضع هي الواردة في : سورة الإسراء: ٨٠ ، و سورة طه: ١١٤ ، و سورة المؤمنون ، في الآيات : ٢٩ ، و٩٣ ، و ٩٧ ، و ١١٨ .

المبحث الثاني

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾الزمر: ٩.

المطلب الأول: سبب نزول الآية :

جاء في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال:

١- قال ابن عباس – ﵄ – : نَزَلَتْ في أبي بكر الصدِّيقِ – ﷺ(١).

٢- وقال الضحاك : نزلت في أبي بكر، وعمر – ﵄ – (٢) .

٣- وعن ابن عمر – ﵄ – : أنها نزلت في عثمانَ – ﵁ –(٣) .

٤- وعن الكلبي : أنها نزلت في ابْن مَسْعودٍ، وعَمَّارٍ، وسَلْمانَ – ﵃ –وفي بعض الروايات : ومعهم أبو ذر، وصهيب – ﵃ –(٤) .

---

(١) ينظر : أسباب النزول: ص ٢٤٧ ، ومعالم التنزيل، ٦ / ٦٩ ، واللباب في علوم الكتاب: ١٦ / ٤٨٤.

(٢) ينظر : تفسير القرآن للسمعاني: ٤ / ٤٦١ ، و البحر المحيط: ٧ / ٤١٩ ، واللباب في علوم الكتاب، ١٦ / ٤٨٤ .

(٣) ينظر : أسباب النزول: ص ٢٤٧ ، وتفسير القرآن للسمعاني:، ٤ / ٤٦١ ، و البحر المحيط، ٧ / ٤١٩ ، واللباب في علوم الكتاب، ١٦ / ٤٨٤.

(٤) ينظر : تفسير القرآن للسمعاني: ٤ / ٤٦١ ، واللباب في علوم الكتاب: ١٦ / ٤٨٤

٥- وقيل : نزلت في عمار بن ياسر – ﵁ – وأمثاله(١).

٦- وقِيلَ: {الَّذِينَ يعلمون} عمار – ﵁ – و{الذين لَا يَعْلَمُونَ} أَبُو حُذَيْفَةَ الْمَخْزُومِيُّ(٢).

٧- وقال مقاتل : {الذين يعلمون} هم : عمار، وصهيب، وابن مسعود، وأبو ذرّ – ﵃ –(٣)، ومع ورود الأقوال السابقة إلا أن الظاهر العموم فيمن ذُكر وغيرهم، والله أعلم(٤).

---

(١) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٣ / ١١٨ .

(٢) ينظر : معالم التنزيل: ٦ / ٦٩.

(٣) ينظر : البحر المحيط: ٧ / ٤١٩.

(٤) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٣ / ١١٨ .

المطلب الثاني: علاقة الموضع الآخر ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ بسورة (الزمر).

أولاً : موضوع سورة (الزمر) :

إن المتأمل في سورة (الزمر) يرى أن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على قضية التوحيد ، ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها؛ يعرض في صور شتى .

ومنذ افتتاح السورة تبرز هذه القضية الواحدة التي تكاد السورة تقتصر على علاجها: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾ (الزمر: ١ – ٣).

وقضية التوحيد إمّا أن تجيء نصّا كما في أول آية في السورة، وإما أن تأتي قضية التوحيد مفهوماً ، كقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الزمر: ٢٩).

ويالله ما أعظم هذه القضية قضية التوحيد ! وما أجدرها أن تتكرر في القرآن الكريم لتقريرها، والعناية بها ! فإن في تحقيق التوحيد السعادة في الدنيا، والنجاة يوم الدين.

ثانيًا : علاقة الموضع الآخر﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾بموضوع سورة (الزمر).

إن ارتباط هذه الآية بالموضوع العام للسورة – وهو قضية التوحيد – ارتباط جليّ، ذلك أن القنوت والطاعة والتوجه إلى الله من المسلم الساجد القائم، وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، بهذا الصفاء وهذه الشفافية التي تفتح البصيرة، وتمنح القلب نعمة الرؤية لحقيقة التوحيد، والإقرار بما جاء عن الله تعالى، وبما أنزله على رسوله ومصطفاه – ﷺ – هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر، تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التي رسمتها الآية السابقة . فلا جرم يعقد هذه الموازنة،﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ ﴿٩﴾ ﴾.

فالعلم الحق هو المعرفة، وأي معرفة أعظم من التوحيد ؟ إنه إدراك الحق، وليس العلم الظاهر من الحياة الدنيا الذي لا يؤدي إلى حقائق الكون الكبرى، ولا يمتد وراء الظاهر المحسوس، ومن آتاه (اللبَّ) عرف، وانتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب، وأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة، والمشاهدات الظاهرة، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء.

المطلب الثالث : الفنون البلاغية الواردة في الموضع الآخر :

اشتمل الموضع الثاني، وهو قوله تعالى :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ على العديد من الفنون البلاغية، ومنها:

أولاً :القراءات في (أَمَّنْ) و (الإيجاز) المترتب عليها :

أشار الإمام الجزري – رحمه الله – إلى أنه تأمّل في قول رسول الله – ﷺ: (نزل القرآن على سبعة أحرف)⁽¹⁾، ورأى أن "اختلاف القراءات لا يخرج عن واحد من ثلاثة أوجه، وهي :

(أحدها) : اختلاف اللفظ والمعنى واحد.

(الثاني) : اختلافهما جميعاً، مع جواز اجتماعهما في شيء واحد.

(الثالث) : اختلافهما جميعاً، مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد"⁽²⁾ .

وأمّا إذا تساءلنا عن الفائدة المتوخاة من اختلاف القراءات ؟ فإننا سنجد جواب ذلك لدى الإمام الجزري حين قال : "وأما فائدة اختلاف

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٣ / ٣٥٠.

(٢) النشر في القراءات العشر: ١ / ٤٩.

القراءات وتنوعها فإن في ذلك فوائد غيرما قدمناه من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة.

ومنها: ما في ذلك من نهاية البلاغة.

وبناء على ما تقدم ذكره من فوائد اختلاف القراءات فإننا نرى أقوالاً للعلماء حول الاختلاف في قراءة قوله تعالى :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾، وأقوالهم في توجيه تلك القراءات، وذلك على النحو الآتي:

"قرأ ابن كثير ونافع وحمزة: {أمَن} بتخفيف الميم، وقرأ الآخرون بتشديدها.

فمن شدّد فله وجهان:

أحدهما: أن تكون الميم في {أم} صلة، فيكون معنى الكلام استفهامًا وجوابه محذوفًا مجازه: أمن هو قانت كمن هو غير قانت؟ كقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾(الزمر: ٢٢)، يعني : كمن لم يشرح صدره.

والوجه الآخر: أنه عطف على الاستفهام، مجازه: الذي جعل لله أندادًا خير أمن هو قانت؟

ومن قرأ بالتخفيف فهو ألف استفهام دخلت على {من} ، معناه: أهذا كالذي جعل لله أندادًا ؟ "(١).

---

(١) معالم التنزيل: ٦/ ٥٧.

وقد ترتب على هاتين القراءتين فائدة بلاغية متمثلة فيما يعرف بـ(إيجاز الحذف)، وهي التي أشار إليها (النيسابوري) بقوله : " ولا يخفى أن في الكلام حذفًا، فمن قرأ {أمَن} بالتخفيف فالخبر محذوف، والمعنى أمَن هو مطيع كغيره، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جَرْيُ ذكر الكافر قبله، وبيان عدم الاستواء بين العالم والجاهل بعده.

ومن قرأ بالتشديد فالمحذوف جملة استفهامية، والمذكور معطوف على المبتدأ، والمعنى: هذا أفضل أمَّن هو قانت؟" (١) .

ثانيًا : النداء :

غير خافٍ ما لمبحث (النداء) في الدرس البلاغي من أهمية، حيث درسه علماء اللغة (٢)، والمعاني(٣) في مصنفاتهم وأشاروا إلى لطائفه، ودقائقه، وتحدثوا عن تقسيماته، ومن ذلك حديثهم عن أدوات النداء التي منها (الهمزة)، حيث عدُّوها من أدوات النداء التي ينادى بها القريب.

ومن خلال الاختلاف بين القرّاء في قراءة قوله: {أَمَّنْ} ، تحدَّث العلماء عن هذا الفن البلاغي، ألا وهو (النداء) فقد قرأ بعض المكيين وبعض المدنيين وعامة الكوفيين: {أَمَنْ} بتخفيف الميم.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٣ / ١١٨ ، وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢ / ٦٨٥ .

(٢) ينظر – مثلاً – شرح الرضي على الكافية: ١ / ٣٤٦.

(٣) ينظر – مثلاً – الإيضاح في علوم البلاغة: ص ١٤٤.

وهذه القراءة – على وجه –تكون فيها الهمزة في{أَمَنْ} بمعنى : الدعاء، يراد بها: يا من هو قانت آناء الليل(١).

والقول بأن الهمزة في {أَمَن} بمعنى حرف النداء هو قول الفراء(٢)، "والعرب تنادي بالألف كما تنادي بالياء، فتقول: أبني فلان ويا بني فلان، فيكون معنى الآية: قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار. يا من هو قانت { آنَاءَ اللَّيْلِ } إنك من أهل الجنة، كما قال ابن عباس–ﷺ–ويكون التقدير: يا من هو قانت"(٣).

ولكونِ المعنيِّ بـ{مَنْ هُوَ قَانِتٌ} النبيَّ – ﷺ –" ناداه الله بالأوصاف العظيمة الأربعة؛ لأنها أوصاف له– ﷺ – "(٤).

غيرَ أنَّ مِن العلماء من ضعَّف القول بالنداء مثل: (أبي حيان)حين قال: " وهذا القول أجنبي عما قبله وعما بعده " (٥).

وقد سبقه إلى هذا التضعيف (أبو علي الفارسي).

---

(١) ينظر : جامع البيان: ٢٣ / ١٢٨، والتبيان في إعراب القرآن: ٢ / ٦٨٥.

(٢) ينظر : فتح القدير: ٤ / ٥٢٠.

(٣) معالم التنزيل: ٦ / ٥٧.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٣ / ٣٤٥ ، وينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٣ / ١١٨. وإرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٠٣.

(٥) البحر المحيط: ٧ / ٤١٨.

وقد اعترض أبو حاتم، والأخفش - رحمهما الله تعالى - على هذه القراءة من أصلها فناقشهما الشوكاني - رحمه الله تعالى - مبيّنًا : أنّ اعتراضهما لا وجه له؛ لأنه إذا ثبتت الرواية بطلت الدراية⁽¹⁾، وهي مناقشة في محلها من الإمام الشوكاني - رحمه الله - لأن المعتمد الرواية، فلا تُضعَّف رواية ثابتة لرأي وقاعدة.

ومن اللطائف البلاغية في النداء هنا ما بيَّنه الطاهر ابن عاشور بقوله :" إفراد {قُلْ}؛ وذلك مراعاة للفظ { مَنْ } المنادى "⁽²⁾.

ثالثًا : التعبير بالموصول :

مما يحسن الحديث عنه في هذه الآية الكريمة هنا، ما أشار إليه العلماء من الحُسْن الوارد في التعبير بالموصول { مَنْ } "وذلك بالقول برأي الفراء الذي يرى أن الهمزة للنداء و{مَنْ هُوَ قَانِتٌ} :النبي - ﷺ - فيحسن التعبير بالاسم الموصول أيّما حُسن ! لأن الله تعالى نادى نبيَّه - ﷺ -بالأوصاف العظيمة الأربعة ؛ لأنها أوصاف له ونداء لمن هم من أصحاب هذه الأوصاف، يعني المؤمنين أن يقولوا: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا

---

(1) ينظر: فتح القدير: ٤ / ٥٢٠

(2) التحرير والتنوير: ٢٤ / ٣٤

يعلمون "(١)، يعني: أن الاسم الموصول {مَنْ} عُبِّرَ به عن النبيِّ - ﷺ - للتوطئة إلى ذكر أوصافه المذكورة بعد التعبير به.

رابعًا: الاستفهام الإنكاري:

(الاستفهام) من الأمور التي أشار إليها العلماء عند حديثهم عن قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾؛ حيث بيَّنوا أنَّ " الاستفهام (إنكاري)، والقرينة على إرادة الإنكار تعقيبه بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لظهور أنَّ {هل} فيه للاستفهام الإنكاري، وبقرينة صلة الموصول. تقديره: أمَّن هو قانت أفضل أم من هو كافر؟ والاستفهام حينئذ تقريري ويقدر له معادل محذوف، دلَّ عليه قوله عقبه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

"والاستفهام للتنبيه على كون الأولين في أعلى معارج الخير، وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٣٤٥.

(٢) تفسير روح البيان: ٨ / ٦٠، وينظر: إرشاد العقل السليم: ٤ / ٣٠٣.

خامسًا : إيجاز الحذف :

ومن الفنون البلاغية الواردة في هذه الآية (الإيجاز)، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ إذ المعنى – والله تعالى أعلم – أمن هو قانت ... كغيره ؟

ولم يُذكر المقابل المحذوف ؛ لدلالة ما تقدم عليه، وهو جري ذِكر الكافر ⁽¹⁾.

وهذا الحذف قد جاء " ثقةً بدلالة مساق الكلام عليه، كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به :أأنت أحسن حالا ومآلا، أم من هو قائم بمواجب الطاعات، ودائم على وظائف العبادات، في ساعات الليل التي فيها العبادة أقرب إلى القبول ؟! " ⁽²⁾.

ولا يخفى ما أفاد هذا الحذف من البلاغة التي عُرِّفت في أحد تعريفاتها بأنها الإيجاز !وهو ما أشاد به العلماء في مصنفاتهم، وإن كانت غير متخصصة في البلاغة ⁽³⁾ .

---

(١) ينظر : الكشاف: ٤/ ١١٨ ، والمحرر الوجيز: ٤/ ٥٩٢.

(٢) روح المعاني:٢٣/ ٢٤٥.

(٣) ينظر – مثلاً – زاد المسير: ١ / ١٢٢ ، والآداب الشرعية: ١/ ٦٧ .

سادسًا : حسن اختيار لفظ (القنوت) :

إن اصطفاء لفظ دون غيره في القرآن الكريم له اعتباره، ومكانته، ومنزلته التي لا يقوم بها غيره في السياق نفسه، وهذا ما نجده في التعبير القرآني بلفظ ﴿قَٰنِتٌ﴾، حيث إن للفظ القنوت مزيَّة على غيره من الألفاظ المقاربة له في المعنى ؛ إذ إن القنوت – كما عرَّفه (الراغب)–هو :" لزوم الطاعة مع الخضوع "(١)، وإن الخضوع في لزوم الطاعة لأمر لهو الأمر المطلوب، وهو الأمر الذي يستحق الموازنة والمقابلة بمن لا يحذر الآخرة، ولا يرجو رحمة ربه! ولك أن تستشعر الحلة الإيمانية لهذا القانت في هدأة الليل وهو يناجي ربّه، وقد تعلّق قلبه بربّه، فطمع في وعده، ووجل من وعيده، فغدا كالطير ذي الجناحين الذي لا يطير بأحدهما مستغنيًا به عن الآخر!

سابعًا : تقديم السجود على القيام :

ومن الأوجه البلاغية في هذه الآية الكريمة تقديم (السجود) على (القيام) مع أهمية الأمرين، فما سببُ ذلك ؟

السبب – والله تعالى أعلم – ما أشار إليه بعض المفسرين من أن السجود أدخل في العبادة، وأخصُّ . ولذلك قُدِّم على القيام هنا (٢).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٢ / ٢٦٣.

(١) ينظر – مثلاً : روح المعاني: ٢٣ / ٢٤٦ ، وروح البيان: ٨ / ٦٠.

وهذا التوجيه – والله أعلم – ذو حظ من الصحّة ؛ ذلك أن المتبادر إلى الذهن حال رؤية هيئة السجود هو التعظيم والخضوع والتذلل التي هي معنى العبادة .

ثامنًا : المجاز المرسل في كلمتَيْ : ﴿ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ :

عُبِّرَبلفظ السجود وأريد به – والله أعلم - عموم الصلاة ؛ وما ذلك إلا لأهمية السجود، ولمنزلته من الصلاة، فإن السجود جزء من الصلاة، وتتضح أهمية السجود من أوجه :

١- أن العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد ؛ فقد روى أبو هريرة – ﵁ -أَنَّ رَسُولَ اللهِ- ﷺ -قَالَ: " أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ "(١).

٢- أن العرب كانت تأنف من السجود، ولذلك اشتهر عندهم الدعاء بقولهم : رَغِمَ أنفُ فلان، أي: لصق بالرَّغَم، وهو التراب، بمعنى: ذلَّ بقرب أنفه من التراب(٢)، إلا أن هذه الحالة، أي: السجود لله رب العالمين هو غاية العزِّ والرفعة والعلوّ، ذلك أن الذل لله العزيز عزٌّ .

---

(١) مسند الإمام أحمد، ١٥ / ٢٧٤ ، وينظر : المستدرك على الصحيحين: ١ / ٣٩٥، والسنن الكبرى للبيهقي: ٢/ ١١٠ ، والجمع بين الصحيحين:٣ / ٢١٤ .

(٢) إكمال الإعلام بتثليث الكلام: ١ / ٢٥٥.

٣- أن من هدي رسول الله - ﷺ - إطالة السجود لمناجاته ربَّه تعالى، كما صحَّت بذلك الأحاديث، ومن ذلك ما روى عبد الرحمن بن عوف - ﵁ - أنه قال : كنت قائمًا في رحبة المسجد فرأيت رسول الله- ﷺ -خارجًا من الباب الذي يلي المقبرة قال : فلبثت مليًا ثم خرجت على أثره، فرأيته قد دخل حائطًا من الأسواق، فتوضأ ثم صلى ركعتين، فسجد سجدة أطال السجود فيها، فلما تشهد رسول الله- ﷺ - تبدأت له فقلت له : بأبي أنت وأمي حين سجدت أشفقت أن الله قد توفاك من طولها، فقال : " إن جبريل عليه السلام بشرني أنه من صلّى علي صلّى الله عليه، ومن سلّم علي سلّم الله عليه" (١)، وغير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على طول سجود رسول الله - ﷺ- والرسول - ﷺ - هو المعنيُّ هنا بقوله تعالى :﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا ﴾ ، كما تقدَّم في سبب نزول الآية. إذًا فهذا وصف سجود القانت لله ساجدا وقائمًا عليه من ربه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

٤- أن السجود من أرجى الأحوال في استجابة الدعاء، لما صحَّ عن ابن عباس - ﵁ - أنه قال : كشف رسول الله- ﷺ -الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال:" أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات

---

(١) شعب الإيمان:٢ / ٢١٠.

النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً؛ فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء؛ فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم" (١).

٥- أن الذكر الوارد في السجود من أعظم الذكر ؛ ذلك أنه تسبيحٌ وتنزيهٌ لله تعالى بوصف من الأوصاف العظيمة، وهو العلوّ (سبحان ربِّي الأعلى)(٢) .

لا غرو إذًا أن يُعبَّر بالسجود عن بقية أفعال الصلاة، ذلك أن من لطائف الذكر في السجود أن المصلي وهو أبعد ما يكون عن العلو الحسي يناجي ربه بوصفه (الأعلى)!

ويمكن أن أورد عن﴿قَآئِمًا﴾ قريبًا من الأوجه السابقة في ﴿سَاجِدًا﴾ ، وذلك لأهمية القيام في الصلاة، ومما تتضح منه أهميته هذه الأوجه :

١- أن القيام هوأحد أركان الصلاة فيما يذكره الفقهاء – رحمهم الله تعالى – على اختلاف مذاهبهم(١)، ولذلك فهو لا يسقط في الفرض مع القدرة عليه.

---

(١) صحيح مسلم: ٢ / ٤٨، والمسند المستخرج على صحيح الإمام مسلمة، ٢ / ٩٣ ، والجمع بين الصحيحين: ٢ / ١٠٢ ، وجامع الأصول في أحاديث الرسول: ٤ / ١٨٩ .

(٢) ينظر :المعجم الكبير: ١٧ / ٣٢٢ ، والجمع بين الصحيحين: ١ / ١٦٧.

٢- أن عدم القيام مع القدرة في صلاة النفل يكون على النصف من أجرها(٢).

٣- أن من هدي رسول الله – ﷺ – إطالةً القيام إطالةً جعلت بعض أصحابه يهم بالانصراف عنه لعدم قدرته على تحمّل قيامه – ﷺ – وهذا ما حدَّث به حذيفة – ﵁ –قائلاً : صليت مع رسول الله– ﷺ –ذات ليلةٍ فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت : يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم ا فتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً؛ إذا مرّ َبآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرّ َبسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول:"سبحان ربي العظيم"، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: "سمع الله لمن حمده "زاد جرير: "ربنا لك الحمد"، ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: " سبحان ربي الأعلى"، فكان سجوده قريباً من قيامه(٣). ومن هذا الحديث وأشباهه نقف

---

(١) ينظر: مثلاً– المبسوط: ١/ ٣٢، والعدة شرح العمدة: ١ / ٧٥، والذخيرة: ١ / ٥، والمبدع شرح المقنع: ١ / ٤٤٢، والإقناع، ١ / ١٢٨ .

(٢) المغني: ١ / ٨١٣، وشرح منتهى الإرادات: ١ / ٢٤٨.

(٣) الجمع بين الصحيحين: ١ / ١٦٧.

على أن وصف الرسول الكريم القانت بصفة القيام هنا جاء في أتمِّ وجه، وأحسن موقع، عليه من ربه الصلاة والسلام.

٤- أن القيام هو محلُّ (فاتحة الكتاب)، وهي السورة التي جاءت تسميتها باسم (الصلاة)، مما يدلُّ على أهمية القيام والأفعال والأقوال التي فيه، كما صحَّ في ذلك الحديث ؛ فعن أَبي السَّائِبِ، مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ، قال : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – : "مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، هِيَ خِدَاجٌ، هِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمَامٍ"، فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنِّي أَحْيَانًا أَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، قَالَ: فَغَمَزَ ذِرَاعِي، وَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا يَا فَارِسِيُّ فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَقُولُ: " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي، وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ "، قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – : " اقْرَءُوا: يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: حَمِدَنِي عَبْدِي، يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٣﴾ ،يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤﴾ ،يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ ، فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ "⁽¹⁾.

تاسعًا : التعبير بالجملة الاسمية في ﴿ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ :

مما يحسن الإشارة إليه في بلاغة هذه الآية الكريمة أن التعبير جاء بالجملة الاسمية المفيدة الدوام والاستمرار، وذلك في التعبير عن السجود والقيام ؛ إذ قال تعالى : ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾، والمتأمل في ذلك يرى كيف حسن هذا التعبير، حتى جعل السجود والقيام بمنزلة الدوام، وكأنَّ ذلك القانت دام سجوده حتى لا يكاد يرفع منه، ودام قيامه حتى لا يكاد يفارقه ! والشاهد من السنة والتي أشرت إلى شيء منها آنفًا تدلُّ حقيقة على حسن التعبير بما يدلُّ على الدوام والاستمرار، إضافة إلى استشعارنا أن النبيَّ القانت – ﷺ – كان لا يكاد ينفكُّ عن الصلاة أصلاً، ولذا قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ ﴾، ومن ذلك نفهم راحة رسولنا القانت الساجد القائم بالصلاة، حين قال – ﷺ – : "أقم الصلاةَ يابلالُ، أرِحْنا بها"⁽²⁾.

---

(١) مسند أحمد: ١٦ / ٢٥ ، والموطأ:٢ / ١١٥ .

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول: ٦ / ٢٦٣.

عاشرًا : التعبير بالجملة الفعلية في ﴿ يَحْذَرُ ﴾﴿ وَيَرْجُواْ ﴾ :

جاء التعبير في موضع الحذر والرجاء بالجملة الفعلية المفيدة التجدّد والحدوث. وذلك لإفادة تجدّد الحذر من أهوال الآخرة وعذابها كلّما عنَّ ما يذكِّر بها، وتجدُّد التعلق برحمة الله تعالى كلما لاحت بعض نسائم رحمة الله تعالى، ومما يفسِّر ذلك ما ورد في وصف حذيفة - رضي الله عنه - صلاة النبيّ - صلى الله عليه وسلم - وفيه أنه "... إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ ..." (١). وعلى هذا تبدو مناسبة التعبير بالفعل في كل أمر من شأنه التجدّد والتغيّر ؛ كحال الحذر والرجاء هنا.

الحادي عشر : الطباق الخفي في ﴿ يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ :

من الفنون البلاغية في هذه الآية الكريمة (الطباق الخفي) الحاصل بين (حذر الآخرة) و(رجاء رحمة الله)، وهو مبحث قريب من المقابلة التي ذكر العلماء أنها" تكون غالبًا بين أربعة أضداد، ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه" (٢). وغير خافٍ ما أضفى هذا الفن البلاغي في الآية الكريمة على اللفظ من جمال، وعلى المعنى من بهاء، ولا سيما إذا استشعرنا أن حال المؤمن في هذه الدنيا لا بد أن تكون قائمة على الخوف والرجاء معًا، وأنه مع قيامه

---

(١) الجمع بين الصحيحين: ١ / ١٦٧ .

(٢) كتاب الكليات: ص ٨٤٥.

بالصالحات وموجبات الرحمة وعزائم المغفرة فإن ذلك لا بد أن يكون بين الخوف والرجاء(١)، ذلك أن " مما نعتقده : أن العبد مادام أحكام الدار جارية عليه، فلا يسقط عنه الخوف والرجاء " (٢).

وما أجملَ تشبيه حال المؤمن وهو يتقلب بين الخوف والرجاء بصورة الطير ذي الجناحين ! حيث إن " الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت " (٣).

الثاني عشر : الإيجاز في ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡأَخِرَةَ ﴾ :

مما تجدر الإشارة إليه في معرض ذكر الفنون البلاغية في هذه الآية ما جاء فيها من (إيجاز الحذف)، وذلك عندما حُذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، إذ إن أصل التعبيريحذر عذاب الآخرة على ما ذكره بعض المفسرين (٤).

---

(١) ينظر : المستدرك على مجموع الفتاوى: ١ / ٢٢٥ ، ودقائق التفسير: ٢ / ٣٦٠ ، وطريق الهجرتين: ص ٤٢٢ .

(٢) الفتوى الحموية الكبرى: ص ٤٦١.

(٣) مدارج السالكين: ٢ / ٣٦.

(٤) ينظر : روح المعاني: ٢٣ / ٢٤٦.

والغرض البلاغي في هذا الحذف – والله تعالى أعلم –هو أن يتعدد المضاف الذي يصحُّ تقديره هنا من نحو : يحذر عذاب الآخرة، أو أهوال الآخرة، أو حساب الآخرة، أو ذلّ الآخرة، أو هوان الآخرة، أو طول وقوف الآخرة، أو غير ذلك مما يُخاف منه في الآخرة، وهو الذي قد يفوت لو ذُكِر مضاف واحد في السياق.

الثالث عشر : تقييد الرجاء برحمة ربه :

أما عندما صار الحديث عن الرجاء والتعلّق برحمة الله، فكان الأنسبُ النصَّ على ذِكر الرحمة ؛ لما في ذكرها نصًّا من جانب الاستبشار والفأل، ونشر روح الطمأنينة والطمع بما عند الله، وما ادّخره لعبده المؤمن، ومما يقوي أهمية النصِّ على الرحمة أمور، ومنها :

١- أن الله سمّى الجنة بالرحمة، وذلك ما ورد في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- ﵁ -قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ- ﷺ -" تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتْ النَّارُ : أُوثِرْت بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الْجَنَّةُ : مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ. قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا

..."(١). وأهمُّ ما يُرجى في الآخرة دخول الجنة، التي هي الحُسنى، وبها تكون الزيادة برؤية الله تعالى، فناسب أن تُذكر الرحمة نصًّا .

٢- ومنها أنَّ ثمَّة رحمات تنتظر العبد المؤمن في الآخرة، وهو ما يبيِّنه الحديث الصحيح المرويِّ عن النبي - ﷺ -أنه قال : "إن لله مئة رحمة. أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والوحش والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر لنفسه تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة "(٢)، فما أجمل التصريح برجائها كما جاء في الآية الكريمة!

الرابع عشر : فائدة التعبير بالفعل ﴿ يَحْذَرُ ﴾ :

ورد التعبير بالفعل ﴿يَحْذَرُ﴾ دون أن يقول - مثلاً – يخاف، أو يخشى، أو ما شابههما، فما سبب ذكر الحذر دون غيره مما يمكن أن يكون شابهه وقَرُب منه في المعنى ؛ كالخوف، والخشية، والوجل، والرهب ؟

وبعد التقصّي في شأن إيجاد الفرق بين هذه المعاني المشار إليها هنا وجدت ثمَّة فروقًا بينها، وإن كانت قد لا تبدو أول الأمر، وهذا يقودنا إلى تعريفات هذه المعاني، ومن خير ما يرشدنا إليها الكتاب المتخصِّص في

---

(١) صحيح البخاري: ٤ / ١٨٣٦، وصحيح مسلم: ٨ / ١٥١، وصحيح ابن حبان: ١٦ / ٤٨٢.

(٢) مسند أبي يعلى: ١١ / ٢٥٨.

ذلك، وهو (مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني – رحمه الله تعالى – إذ ذُكِر في مواضع متفرقة منه ما يلي:

١- "الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة"(١).

٢- "الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه"(٢).

٣- "الوجل: استشعار الخوف"(٣).

٤- "الرهبة والرهب: مخافة مع تحرز واضطراب"(٤).

في حين أننا نجد الراغب – رحمه الله تعالى –قد بيَّن أنَّ الحذر هو: "احتراز من مخيف"(٥). واستشهد بالآية الكريمة التي هي موضوع بحثنا هنا، ومن خلال الموازنة بين التعريفات السابقة يتبيّن لنا شيءٌ من مناسبة اصطفاء لفظ (الحذر) دون غيره في هذا السياق، وذلك لأن الحذر (احتراز) دون اضطراب، وما أحرى حال القانت الساجد القائم بالاحتراز عن كل مخيف في الآخرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ١ / ٣٣٢.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٣٠٠.

(٣) المصدر السابق: ٢ / ٤٩٢.

(٤) المصدر السابق: ١ / ٤١٧.

(٥) المصدر السابق: ١ / ٢١٨.

الخامس عشر : الإضافة في ﴿ رَحْمَةَ رَبِّهِۦٓ ﴾ :

المتأمل في إضافة الرحمة إلى الربّ، وإضافة لفظ الربّ – سبحانه – إلى العبد القانت يرى مدى ما توحي به هذه الإضافات من الترغيب بالتعلّق برحمة الربّ لعبده، فالرحمة رحمة الربّ، والعبدُ عبدُ هذا الربّ المتصف بالرحمة، والله لا يخيب رجاء من رجاه، فما أحرى هذا الرجاء أن يتحقق، لا سيما وهو رجاء مصحوب بعمل؛ من قنوت، وسجود، وقيام، فما أعظم إضافة الاسم الكريم إلى العبد الضعيف ! ويا لها من إضافة تكريم وتشريف، نسأل الله – تعالى – أن يسعنا ووالدينا والمسلمين برحمته.

السادس عشر : التعبير بالاسم الدال على الربوبية ﴿ رَبِّهِۦٓ ﴾ :

لاختيار لفظ (الربّ) هنا دون غيره من الأسماء الحسنى دلالات خاصة، لعلَّ منها ما أشار إليه اللغويون والمفسرون من أن لفظ الرب يعني الملك، ويدل على معنى التربية، والتدرج⁽¹⁾ ؛ مما يشير إلى معنى الحنوّ والرحمة، فناسب – والله أعلم – أن يكون المربِّي راحمًا بالمتربي، عاطفًا عليه، مؤمِّنًا له مما يحذر، متكرِّمًا عليه بما يرجو .

---

(١) ينظر: مثلاً – معاني القرآن للنحاس: ١ / ٥٩ ، والمحكم والمحيط الأعظم: ١٠ / ٢٣٣، ومفردات ألفاظ القرآن: ١ / ٣٧٥ ، والكشاف: ١ / ٥٣ ، ولسان العرب: ١ / ٣٩٩.

السابع عشر : الأمر بالفعل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ :

جاء الأمر بالفعل ﴿ قُلْ ﴾، مع أن القرآن الكريم كلّه مما أُمر الرسول - ﷺ - أن يقوله للناس، ولعلَّ ذلك – والله تعالى أعلم – راجع إلى تأكيد المقول، وتنشيط المقول له(١)، حيث إن في إعادة فعل {قُلْ} هنا الاهتمام بهذا المقول واسترعاء الأسماع إليه(٢)، لما في ذلك من أهمية هذا المقول، وهو النتيجة الكبرى من عدم استواء الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

الثامن عشر : تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم:

نصَّ العلماء على أن الفعل المتعدي المنزَّل منزلة اللازم لا مفعول له، وذلك بالنظر إلى المعاني الحاصلة في الحال، وهو ما يُعرف (بالاقتصار)(٣).

ومن الأمور البلاغية التي أشار إليها العلماء في هذه الآية الكريمة تنزيل الفعل المتعدي {يعلمون} مَنْزِلَة اللازم، إذ لم يقدّر له مفعول ؛ لأنَّ المقدَّر كالمذكور . وعليه فيكون المعنى: لا يستوي من يوجد فيه حقيقة العلم ومن لا يوجد، وليعمَّ كلَّ ما يشمل اللفظ من العلم النافع، فيعلمون ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار

---

(١) تفسير روح البيان: ١٠ / ٧٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٤ / ٣٦.

(٣) ينظر : أوضح المسالك: ٢ / ٧٠ ، وشرح ابن عقيل: ٢ / ٥٥، والكليات: ص ١٦٤٤ .

والحكم، كما ذكر ذلك السعدي – رحمه الله تعالى – (١)، وعليه فالفعل (يعلمون) لم يقيّد بمفعول معيَّن، وإلا لذهب حُسن الإطلاق هنا.

ولعل هذا الإطلاق هو السبب في مناسبة الختم بهذه الجملة العظيمة : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ " أي: إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل والوهم، وهؤلاء بمعزل عن ذلك" (٢).

التاسع عشر : الطباق في قوله : ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ :

من الأوجه البلاغية البيِّنة في هذه الآية الكريمة الطباق بين إثبات العلم ونفيه، على طريقة طباق السلب، وهو الجمع بين فعلين أحدهما مثبت، والآخر منفي (٣).

وقد وقع الطباق موقعه الحسن، وذلك لوروده في معرض الموازنة، ونفي الاستواء في قضية من أهم القضايا، وهي قضية العلم، فناسب أن يكون الكلام مسوقًا على النفي والإثبات كما هو واضح هنا .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ص ٧٢٠.

(٢) تفسير روح البيان: ٨ / ٦١.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ص ٣١٩.

المبحث الثالث

المواضع البلاغية الخاصة في جملة

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

اشتملت هذه الجملة العظيمة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ على العديد من النكات البلاغية، والإشارات البيانية، وإن كان الحديث قد سبق في المبحثين السابقين عن الفوائد البلاغية المتعلقة بالآيتين التي وردت فيهما هذه الجملة العظيمة، لكنني سأشير في هذا المبحث إلى ما يتعلق بهذا التركيب خاصة، لما اشتمل عليه من بيان، ونكاتٍ عديدة، ومنها:

أولاً : القَصْر :

القصر بـ(إنما) أحد طرق القصر الاصطلاحية المشهورة (١) .

وقد جاء القصر بـ {إِنَّمَا} هنا فيما يعرف بالقصر الإضافي(٢)، أي:" المتذكرون أولو الألباب لا غير أولي الألباب" (٣)، وغير خافٍ ما في أسلوب القصر من أسرار، لا سيما في القصر الإضافي الوارد في هذه الآية الكريمة، ذلك أن التذكر أصبح خاصًّا بأولي الألباب لا يتجاوزهم إلى غيرهم، فغير

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: ص ١٢٠.

(٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ص ١١٨.

(٣) التحرير والتنوير: ١٣ / ١٢٣.

أولي الألباب ليسوا أهلاً للتذكّر، وحسبك بهذا شرفًا لأولي الألباب، وبيانًا لمكانتهم.

ومما يحسن ذكره هنا ما أشار إليه الطاهر ابن عاشور في حسن ورود (القصر) هنا حيث قال : " وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ واقع موقع التعليل لنفي الاستواء بين العالم وغيره، المقصود منه تفضيل العالم والعلم...وقد أخذ في تعليل ذلك جانب إثبات التذكر للعالمين ونفيه من غير العالمين بطريق الحصر؛ لأن جانب التذكر هو جانب العمل الديني وهو المقصد الأهم في الإسلام ؛ لأن به تزكية النفس والسعادة الأبدية، قال النبي – ﷺ – : (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين) "(١).

ثانيًا : التوكيد :

التوكيد من خصائص الخبر (٢)، وهو مما يزيد الكلام قوة وتأثيرًا، والسامع إقناعًا، ومن أدوات التوكيد (إنَّ) التي تدخل "على الكلام للتوكيد عوضًا عن تكرير الجملة، وفي ذلك اختصار تامٌّ مع حصول الغرض من التوكيد" (٣).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٣٥١ ، والحديث رواه البخاري: ٦ / ٢٦٦٧ ومسلم:٣ / ٩٤.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ص ٢٣.

(٣) اللباب في علل البناء والإعراب: ١ / ٢٠٥ ، وينظر : الكليات: ص ٢٧٣.

وقد وردت (إنَّ) المؤكِّدَة في هذه الجملة، وهذا التوكيد مما قوّى الخبر الوارد في هذا التركيب :﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثالثًا : (التعريض) أحسن مواضع (إنما) :

مما أطال العلماء الحديث فيه من لطائف هذا التركيب ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ما يُعرَف بـ (التعريض)، وقد عرّف عليّ الجرجاني (التعريض) بقوله : " التعريض في الكلام ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح" (١) .

و(التعريض) وارد في الجملة القرآنية هذه أحسن ورود، فها هو ذا الزركشي يبيّن –في معرض حديثه عن هذا التركيب – أنّ "القصد التعريض، وأنهم لغلبة هواهم في حكم من ليس له عقل" (٢) .

وقد أشار ابن عاشور إلى (التعريض) بقوله : " والقصر بإنما إضافي ؛ أي : لا غير أولي الألباب، فهو (تعريض) بالمشركين بأنهم لا عقول لهم إذا انتفت عنهم فائدة عقولهم"(٣).

وعلى هذا فإنّ (التعريض) هنا يدلّ على " أن الذين لم يستفيدوا من الأدلة بمنزلة من عدموا العقول" (٤) .

---

(١) التعريفات: ص٨٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٤ .

(٣) التحرير والتنوير: ١٣ / ١٢٣ .

(٤) المرجع السابق: والموضع نفسه.

ومما يحسن ذِكره هنا أنّ بين (التعريض) و (إنّما) تلازمًا أكيدًا، وعلاقة وثيقة؛ فالتعريض أحسن استعمالات (إنما)، وذلك في نحو ما جاء في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾⁽¹⁾.

وهذا (التعريض) الذي تكلم عنه المفسرون هو ما أشار إليه البلاغيون في مصنفاتهم، فقد أجاد الخطيب القزويني حين أوضح في (الإيضاح) " أنَّ لطريق (إنما) مزية على طريق العطف، وهي أنه يعقل منها إثبات الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة، بخلاف العطف"⁽²⁾.

وها هو ذا الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) يقول – في معرض حديثه عن (إنما) – : " ثم اعلمْ أنك إِذا استقريتَ وجدتَها أقوى ما تكونُ وأعلَقَ ما ترى بالقلب إِذا كان لا يُرادُ بالكلامِ بعدَها نفسُ معناه ولكن (التّعريضَ) بأمرٍ هو مقتضَاه، نحوُ أنَّا نعلمُ أنْ ليس الغرضُ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أن يعلمَ السَّامِعُون ظاهرَ معناه، ولكن أن يُذمَّ الكفارُ وأنْ يُقالَ : إِنهم من فرطِ العِنادِ، ومن غَلبَةِ الهوى عليهم في حكمِ مَنْ ليس بذي عقلٍ . وإِنكم إِنْ طَمعْتُم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتُمْ كمن طَمِع في ذلك من غيرِ أولي الألباب..." ⁽³⁾.

---

(١) ينظر: الكليات: ص١٩٠.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ص ١٢٥.

(٣) دلائل الإعجاز: ص ٢٦٩، وينظر: مختصر المعاني: ص ١١٨.

رابعًا : لماذا جاء التعبير بـ﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾؟

جاء التعبير القرآني بالفعل﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾تحديدًا، دون غيره من الأفعال المقاربة من نحو (يتفكر) أو (يعقل) أو (يعلم) أو غيرها، فما سبب ذلك؟

ولعلّ السبب في ذلك – والله تعالى أعلم – ما لمادة التذكّر من مزية خاصة، ذلك أن التذكر مأخوذ من الذكرى، والتذكرة وفيها من الخصوصية بالإيمان والعقول ما ليس في غيرها (١).

خامسًا :البنية الصرفية للفعل﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾.

ومن اللطائف الواردة في هذه الجملة التعبير بلفظ الفعل (يتذكر) دون (يذّكر) إذ إنَّ هذه الصيغة التي ورد فيها { إنما يتذكر } تدل على أنَّ كون التذكّر " تذكرًا عظيمًا بما أفهمه إظهار التاء "(٢)، ذلك أن الزيادة في المبنى تدل غالبًا على الزيادة في المعنى، وأن اللفظ يزيد نطقًا فيزداد جرسًا ويزداد معه المعنى الدال عليه ذلكم اللفظ، وهذا أمر واضح لمن وفقه الله للتدبر في آياته (٣).

---

(١) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن: ١ / ٣٦٥.

(٢) نظم الدرر: ١٦ / ٤٦٨.

(٣) ينظر : إسفار الفصيح: ١ / ١٧٦.

سادسًا : التعبير بالجملة الفعلية.

يختلف التعبير بالجملة الاسمية عنه في الجملة الفعلية ؛ وذلك لخصائص تختص بها كل من الجملتين ؛ فالتعبير بالاسمية يحمل في طياته أسرارًا لا توجد في التعبير بالفعلية، وكذلك الشأن في التعبير بالفعلية.

ولعلّ المعنى البلاغي المراد في التعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى : {يتذكر} ، إفادة استمرار التذكّر المسند إلى(أولي الألباب) ؛ ذلك أنّ من خصائص التعبير بالجملة الفعليةِ إفادةَ الاستمرارِ التجدّدي⁽¹⁾ .

سابعًا : ما سبب تخصيص لفظ ﴿ أُوْلُواْ ﴾ دون غيره ؟

مما يحسن الإشارة إليه في هذه الآية التعبير بلفظ ﴿أُوْلُواْ﴾ دون لفظ (أصحاب) أو (ذوو) مثلاً، والسبب في ذلك أنَّ لفظ ﴿أُوْلُواْ﴾ من الألفاظ الملازمة للإضافة ⁽²⁾، وأنها لا تضاف إلا إلى عاقل⁽³⁾ .

---

(١) ينظر – مثلاً : الإيضاح في علوم البلاغة: ص ٨٦ ، و٩٩ ، ١٦٠ ، والفصول المفيدة في الواو المزيدة: ص١٦٩ ، والكليات للكفوي: ص ١٠٨ ، والنحو الوافي: ١ / ٣٨٧.

(٢) ينظر – مثلاً : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٦ / ٢٥٤٤ ، والمحكم والمحيط الأعظم: ١٠ / ٣٩٥ ، والمعجم الوسيط: ١ / ٢٣.

(٣) ينظر – مثلاً : شرح ابن عقيل: ١ / ٦٣.

وقد تتبعتُ مجيء لفظ ﴿أُو۟لُوا۟﴾ في القرآن الكريم فوجدته واردًا في تسعة وعشرين موضعًا، جاء في ثلاثة عشر موضعًا منها مرفوعًا، في حين جاء في أحد عشر موضعًا منصوبًا، بينما ورد في خمسة مواضع مجرورًا .

وهو في غالبها إنما يُضاف إلى مضاف إليه ذي شأن، من نحو قوله تعالى :﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾هود: ١١٦

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾الإسراء: ٥

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾النساء: ٨٣

ثامنًا : اصطفاء لفظ﴿ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ :

للّفظة القرآنية رونقها، وبريقها الخاص الذي يميّزها عن غيرها من الألفاظ، ولا غرو فـ " ألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب، وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حُذَّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا

الألفاظ المتفرِّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة "(١).

وقد تنبَّه العلماء إلى حسن ورود لفظٍ في هذا السياق، وهو لفظ (اللبُّ) ذلك أنَّ واحد الألباب: لُبٌّ بالضم(٢)، فها هو ذا البقاعي يشير إلى ذلك الحُسنِ قائلاً : " وما أحسن التعبيرهنابـ(اللبّ) الذي هو خلاصة الشيء؛ لأن السياق للإخلاص "(٣)، ومن خصائص هذا اللفظ أنَّ " لبّ كلّ شيء خالصه " كما يقول النحاس(٤)، واللبُّ أخص من العقل على قول(٥).

وإن المتأمل لهذه الآية ليرى بوضوح الفرق بين التعبير باللب وبين ما يشابهها من ألفاظ، لا سيما وقد جمعت فجاءت على لفظ (الألباب) مما زاد المعنى قوة، واللفظ جمالاً، فسبحان من أنزل هذا الكتاب على أتمّ وجه وأكمله.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ١ / ٤.

(٢) ينظر : غريب القرآن: ص ٥١ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن: ص ١١٩، وأضواء البيان: ٢ / ٢٥١.

(٣) نظم الدرر: ١٦ / ٤٦٩.

(٤) معاني القرآن للنحاس، ٦ / ١٦٠.

(٥) ينظر : روح المعاني، ١٣/ ١٣٩.

وإن من ميزة ذوي الألباب - الذين أعملوا ألبابهم - أنهم أقرب إلى اتباع الحق، وأبعد عن التعصب واتباع الهوى ؛ وذلك لأن هذه الألباب تدل فيما تدلُّ على البراءة من مشايعة الإلف، وعلى عدم التسليم المطلق لموروث الآباء الباطل (١)؛ لأن الميزة في الألباب تحكيمها وإعمالها، لا تعطيلها وعماها عن الهدى والنور .

---

(١) ينظر – مثلاً : أنوار التنزيل، ٣/ ٣٢٦ ، وروح المعاني: ١٣/ ١٣٩

الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، هذا هو مداد القلم يسطر خاتمة هذا البحث، الذي عشت معه روحانية القرآن الكريم، وتفيأت ظلاله من خلال دراسة موضعين منه ورد فيهما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقد خرجت –من خلال معايشتي هذا البحث – بعدة نتائج، ومنها :

١- ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، في القرآن الكريم في موضعين اثنين، أولهما ختام الآية التاسعة عشرة في سورة الرعد، والموضع الثاني جاء ختام الآية التاسعة في سورة الزمر.

٢- اشتملت كل آية من هاتين الآيتين على عدد من الفنون البلاغية، بيّنتُها في مواضعها من البحث.

٣- حملت هذه الجملة : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾العديد من الوقفات البلاغية، كما أثبتها في موضعها من البحث.

٤- القرآن الكريم مليء بالفوائد البلاغية، وهي أمام الباحثين للوقوف عليها.

٥- بيان ثراء كتب التفسير بما اشتملت عليه من الإشارات البلاغية الجديرة بالوقوف عليها، ونشرها للمتخصصين، وغيرهم .

٦- في الربط بين البلاغة القرآنية وغيرها من العلوم فوائد جمَّة، من مثل اعتماد كتب السنة في بيان بعض المعاني، والاستشهاد بالأحاديث النبوية لتأكيد وجه بلاغي.

٧- حوت بعض كتب السلوك على معانٍ جليلة يمكن توظيفها في شرح الشاهد البلاغي.

٨- التأمل والتدبّر في كتاب الله تعالى هو أساس كل خير، وفيه تحقيق الغرض الذي نزل من أجله القرآن الكريم .

٩- اصطفاء (اللفظة القرآنية) مبحث مهم ينبغي العناية به، والتأكيد عليه ؛ لأنه ثمرة من ثمار التدبّر المأمور به في القرآن الكريم.

١٠- يخرج هذا البحث وأمثاله بمزيد من الإيمان بأن القرآن الكريم " لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الردّ " (١) .

١١- التأمّل في أدعية الأنبياء – عليهم السلام – يظهر كثيرًا من الخصائص والدلالات، ومن ذلك ورود لفظ (ربّ) في أدعيتهم، كما بيّنته في موضعه من هذا البحث، إذ قد ورد اللفظ (ربّ) في أدعيتهم – عليهم السلام – في نحو ثلاثة وأربعين مرّة، في حين جاء

---

(١) جزء من حديث صحيح الإسناد ، ينظر : المستدرك على الصحيحين للحاكم: ١ / ٧٤١ ، وشعب الإيمان للبيهقي: ٢ / ٣٢٤.

الأمر من الله – تعالى – بالدعاء بهذا اللفظ ست مرّات في القرآن الكريم.

١٢- الدقة في الاختلاف بين التعبير بين الجملتين الاسمية والفعلية، وتطبيق ذلك على الشاهد القرآني الذي تناولته في هذا البحث.

١٣- معرفة الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتقاربة يظهر شيئًا من مزايا القرآن الكريم، ومن ذلك وقوفي على الفرق بين ألفاظ (الخوف، والخشية، والوجل، والرهب)، كما جاء في موضعه من البحث.

وإنني أوصي إخواني الباحثين وطلبة العلم أن يولوا جلَّ اهتمامهم كتاب الله تعالى، ففيه من الهدى والنور ما هو كفيل بأن يرفع الله به الغمّة، ويعيد العزّة والنصر لهذه الأمّة .

كما أوصي بمزيد من العناية بجانب البلاغة القرآنية ؛ لما للقرآن من مكانة خاصة، نظرًا لأن هدف البلاغة الأول هو الكشف عن إعجاز القرآن الكريم.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به وإخواني المسلمين عامّة، وأن يجعله أنيسي في قبري، ومثقِّل حسناتي يوم لقاء ربِّي، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلَّم على من نزل عليه الحق المبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الآداب الشرعية، لعبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر الخيام، مؤسسة الرسالة،بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.
- أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- إسفار الفصيح، لأبي سهل محمد بن علي بن محمد الهروي النحوي، دراسة وتحقيق: أحمد بن سعيد بن محمد قشاش، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م.
- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، لمحمد الشربيني الخطيب، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات – دار الفكر، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ.
- إكمال الأعلام بتثليث الكلام، لمحمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله أبي عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لأبي محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف ابن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري، دار الجيل – بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين أبي عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني، دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م.
- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسن بن عبد الله العكبري، تحقيق: سعد كُرِيِّم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، تحقيق د.فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث بطنطا – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

- التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، (مصور من الدار التونسية للنشر).
- التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.
- تفسير الخازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد ابن إبراهيم البغدادي الشهير بابن الخازن، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.
- تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق:ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن – الرياض ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق : د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى.
- جامع البيان من تأويل آي القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي) - تحقيق وشرح: أحمد بن محمد شاكر - رحمه الله - نشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- الجامع الصحيح المختصر،لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق د. مصطفى ديب البغا،دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت، و دار الأفاق الجديدة، بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، لمحمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (مختارات)، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: د. محمد السيد، مؤسسة علوم القرآن – دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- دلال الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق : د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- الذخيرة، لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب، بيروت، ١٩٩٤م.
- روح البيان في تفسير القرآن، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار إحياء التراث العربي.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي أبي الفضل، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- سنن ابن ماجه – تحقيق وفهرسة: محمد مصطفى الأعظمي – الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م .
- سنن أبي داود – بتعليق: عزت عبيد الدعاس، نشر وتوزيع دار الحديث، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٦٩م .
- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي،مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.

- سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩١م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة،الطبعة العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م.
- شرح منتهى الإرادات، المسمى: دقائق أولي النهى لشرح المنتهى، لمنصور بن يونس ابن إدريس البهوتي، عالم الكتب بيروت، ١٩٩٦م.
- شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ ابن مَعْبدَ، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي ، ترتيب: علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي، المنعوت بالأمير، مؤسسة الرسالة.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: عمر ابن محمود أبي عمر دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٤م.

- العدة شرح العمدة، لعبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبي محمد بهاء الدين المقدسي، تحقيق : صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- غريب القرآن، لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراسة من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- الفتوى الحموية الكبرى، لتقي الدين أبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، دار الصميعي – الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، لصلاح الدين أبي سعيد خليل بن كيلكلدي ابن عبدالله العلائي الدمشقي الشافعي، تحقيق : د. حسن موسى الشاعر، دار البشير – عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- كتاب الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق : عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود ابن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله، تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى بيروت / لبنان – ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- المبدع شرح المقنع، لإبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبي إسحاق، برهان الدين، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- المبسوط، لشمس الدين أبي بكر محمد بن أبي سهل السرخسي، دراسة وتحقيق خليل محي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
- مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
- المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، دار الفكر، الطبعة الاولى ١٤١١هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.
- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
- المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته : محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- مسند أبي يعلى، لأحمد بن علي بن المثنى أبي يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، وآخرين، إشراف:

د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

- المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن إسحاق بن موسى بن مهران الهراني الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.
- معاني القرآن الكريم، لأحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق : محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى – مكة المرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي ابن عبدالمجيد السلفي مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.
- المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة.
- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، دار القلم ـ دمشق.
- الموطأ، للإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد ابن سلطان آل نهيان، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
- النحو الوافي، لعباس حسن، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة

- النشر في القراءات العشر، أبو محمد محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.